الشريعة . . متى . . وكيف ؟

الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء ولكنها نـزلت إلى كل مسلم ليـطبقها فى نفسه أولا وفى سلوكه وفى بيتـه وفى جيرانـه وفى عشيرتـه، فكل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيتـه التى عليه أن يـطبق فيها أمـر الله أولا قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره..

والآيات التى جاءت فى القرآن فى سورة المائدة :

«وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُون» (٤٤ - المائدة)

«وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (٤٥ - المائدة)

«وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون» (٤٧ - المائدة)

هـذه الآيات نـزلت لكـل مسلم وإلى كـل راع فى رعيتـه وهى ليست مسئولية ينفرد بها الحاكم ولا أمانة اختص بها مجلس الوزراء.

بل إن القرآن جاء صريحا بأن الله لن يغير مـا بالنـاس حتى يبدءوا هم بتغيير ما فى نفوسهم.

«إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَابِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١١ - الرعد)

فإقامة شرع الله فى دولة النفس هى البداية وهى الشرط الأول الـذى بدونه لا تغيير ولا تبديل.

والله يخاطب عيسى فى حديث قدسى قائلا :

(يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح منى.)

فالشريعة لم تنزل لنسير بها فى مظاهرة إلى سراى عابدين دون أن يفكر هذا الذى يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات (وبعضهم مأجور ومحترف ومتآمر وعميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرته وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن) هذا الذى يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر فى أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير. . ولن يحقق نفعا. . وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة ودون همة خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة فى نفسه فلن يصل إلى شىء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهرى ووضع لمزيد من الملصقات مثلما فعل النميرى فى السودان فقطع يد سارق عشرة الجنيهات وأعفى سارق المليون.

والخومينى يقول إنه يطبق الشريعة فى إيران والقذافى يقول إنه يطبق الشريعة فى ليبيا وضياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة فى باكستان فأى تطبيق من هذه التطبيقات يريده المتظاهرون.

وفى السعودية تقام الحدود بالفعل فتقطع يد اللصوص ويرجم الزناة ومع ذلك فقد طلع المهدى وعصابته على الكعبة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة.

إنها إذن ليست حكاية الشريعة.

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفسهم حكاما. . إنها

شهوة حكم ومطلب سلطة . . وما اللافتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعمية . . والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التى خططت لتعيد فتنة الخوارج فأرادت أن تخرج علينا رافعة المصاحف على أسنة الرماح هاتفة على الحاكم أن يطبق حكم الله . .

وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد ردا نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبى طالب . . أنها قولة حق أريد بها باطل .

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم .

واليوم نرى الزمن قد استدار دورته ونرى الإسلام يدفع به إلى فتنة أكبر وأشمل ، فنرى المسلم يقتل المسلم فى كل مكان وحملة لواء لا إله إلا الله يذبحون بعضهم بعضا فى لبنان والعراق وإيران وسوريا وليبيا وكل بلد عربى . وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضا تحت راية الشريعة وباسمها .

وقديما لم يقطع عمر بن الخطاب يدا فى مجاعة . . ولم يقطع النبى عليه الصلاة والسلام يدا فى حرب . .

ونحن اليوم فى حرب أو نكاد . . وفى فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب . . وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برىء . .

وقد أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام أن ندرأ الحدود بالشبهات . . وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذى يموج بالفتن كقطع الليل المظلم .

تمهلوا يا قوم ولا تعجلوا فتدفع بكم العجلة إلى الظلم . . فالشريعة ليست قضية انفعال ولا مسألة هوى . . بل هى مطلب حقيقى وعزيز

ويجب أن تصدق فيه النوايا ويبدأ فيه الطالبون بأنفسهم وتتجاوب فيه القاعدة مع القمة ويأتى فيه الإصلاح على مكث وعلى تروى وعلى تدرج، فنحن فى الظرف الذى يسميه الفقهاء.. شيوع البلوى.. تماما كما كان انتشار الخمر فى الجاهلية بلوى شائعة.. ولذلك نزلت آيات تحريمها على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمها أكثر من اثنتى عشرة سنة.. وكان هذا درسا من الله يعلمنا فيه مرونة التشريع الإلهى ومناسبته لكل الظروف.

ثم هناك ولا شك قضايا فقهية وقانونية فى حاجة إلى إعادة تقنين وإعادة نظر مثل.. قضايا الرشوة والاختلاس والعمولات والسرقة من مال عام.. ومثل تلك السرقات لا يدخلها المشرع الإسلامى تحت بند قطع اليد.. لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يجيز قطع اليد فى سرقته.. وبذلك نراه يقطع اليد فى عشرة جنيهات ويعفى مختلس المليون الذى سرقها من قطاع عام.. وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات اليوم هى سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها.. وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة.

إن الدراسة مطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته.

ثم إن الشريعة ليست مجرد حدود.. فالعدل شريعة والرحمة شريعة والعلم شريعة والعمل شريعة والله أمر بالعلم فى أكثر من ألف موضع وأمر بقطع يد السارق فى موضع واحد.. وأول الأوامر مطلقا.. كان: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ».

ورغم هذا الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذى له أولوية مطلقة فى الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل نفكر فى المظاهرات والهتافات والمسيرات لنطبق الشريعة.. ولكن ما هى الشريعة؟.. إنها هذا كله.. إنها العلم والعمل والعدل والرحمة.. وهى ليست مجرد حدود.. وما الحدود إلاّ سياج الأمن والحماية الذى تضربه الشريعة حول خيمة المسلمين.. ولكن الشريعة ككل أكبر من موضوع الحدود فهى قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النماء والتطور للمجتمع الإسلامى.

وما أقول هذا الكلام إلا حبا فى الشريعة وتمسكا بها وخوفا عليها من سوء النوايا وسوء التفسير، وسوء الفهم وسوء التطبيق، وحرصا عليها من متاجرة المتجرين وأهواء المتآمرين.

والإسلام الحق لا مدخل فيه للاكراه والعنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول.

ولا يصح فى الإسلام إلا الصحيح.

ولا يخلص إلا ما كان خالصا لوجهه تعالى.

فتمهلوا يا قوم.. ولا تسارعوا باتهام بعضكم بعضا.. فكلنا يسير على الشوك وكلنا يمشى على الألغام.. وكلنا مستدرجون من حيث لا ندرى بمكر الماكرين من الداخل وتآمر المتآمرين من الخارج.. ولا يسلم موطئ قدم من حفرة ولا تسلم عتبة من فخ منصوب.. والأعداء حولنا كبارهم وصغارهم لا يريدون لنا سلاما وهم يخططون لخرابنا.. ويا حبذا لو جاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال.

فلنتمهل . . ولنفكر مرتين .

وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولا وليطبقها فى سلوكه وفى بيته وليغير من نفسه . .

فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا .

فذلك وعد الله . . ولن يخلف الله وعده .

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه فى هدوء بين رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد متنورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شيء .

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِن رَّبِّكُمْ » (٥٥-الزمر)

الله يوصينا بهذا مع أن كل ما أنزله إلينا حسن .

والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر . . فالله أمرنا بالعدل ولكنه أمرنا أيضا بالرحمة . . والرحمة فوق العدل . . ومن يأخذ بالرحمة يأخذ بالأحسن .

ألم يقل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للمسلمين .

تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى منها فقد وجب .

أى حاولوا تصفية الخلافات التى تقتضى الحدود فيما بينكم فيعفو الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغونى فإن ما بلغنى منها فقد وجب تنفيذه . . يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثارا للعفو والتراحم بين المتخاصمين .

وهذا هو الإسلام . . دين السماحة والتراحم والمحبة والمغفرة . .

الدين الذى لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل فرص الإصلاح . . الدين الذى جاء رحمة للعالمين .

فلنحاول أن نكون مسلمين حقا . . رحماء حقا . . إنسانيين حقا . . فتلك هى بطاقات المؤمن الربانى الوارث الذى يسير على القدم المحمدية .

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف الطائرات وتلغيم السيارات ، فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل الأغراض والأهواء ، والمهيجين والمجرمين والمتاجرين بالعقول . . ولسنا منهم . . بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا بابا إلى نجاة ، بل سوف يفتحون لنا جهنم على مصاريعها .